قراءة في كتاب

في الأدب الإسلامي

للناقد د. وليد قصاب

صدر حديثًا كتاب «في الأدب الإسلامي» تأليف الدكتور وليد قصاب. والمؤلف باحث جامعي، سبق أن صدر له كتب كثيرة جادة متميزة لاهتمامه بموضوع الشعر واتجاهاته المعاصرة.. وهو يلتمس في دراساته تعميق النهج الإسلامي في الأدب العربي المعاصر بعد أن عصفت به رياح التقليد، وتخلى عن أصوله التراثية وانتماءاته الفنية تحت شعار الحداثة والتحديث أو بحجة الانفتاح على الآداب الأخرى، أو تطعيمه بنكهة جديدة، غير أن ذلك الانفتاح تحوّل إلى تبني مختلف «الصرعات» الأدبية التي تردنا من الغرب، والاستسلام بلون الإعجاب غير المدروس، أو القصد الموجه لتيارات الحداثة، حتى اقتلعته من انتماءاته الأصولية وجعلته كالريشة تتقاذفها رياح التغيير وهي مستسلمة لقدرها.

عبداللطيف أرناؤوط - سورية

لقد أعجبت بما قدمه الدكتور «قصاب» في كتابه «الحداثة في الشعر العربي المعاصر» من تتبع دقيق وتفنيد مقنع لما وراء ثوب الحداثة الأدبية المستورد من خيوط تآمرية في الخفاء لاجتثاث أصول أدبنا العربي وتغيير مساره، لما له من تأثير في حياتنا الروحية والاجتماعية، وتوجيهه لتحطيم القيم الموروثة والأصيلة للمجتمع العربي الإسلامي.

يضم كتاب «في الأدب الإسلامي» ثمانية فصول تتناول نشأة الأدب الإسلامي ومضمونه ومفهومه ومصطلحه وتجاربه وبعض مسائله البارزة المتصلة بخصائصه، كصلته بالأدب والعقيدة، وعلاقته بالالتزام، وقضايا أخرى تمّ تفصيلها في الفصل الثامن. منها قضية الوضوح والغموض وتجربة التحديث، وتيار اللاوعي في الأدب وبعض المفاهيم المغلوطة في الأدب والنقد.

ونشرت بعض فصول الكتاب على صورة مقالات في الصحف والمجلات، ثم نسقها المؤلف وأضاف إليها جملة من الآراء التي حصلها من دراساته ومطالعاته في المراجع والمصادر التي تناولت موضوع الأدب الإسلامي كما يشير إلى ذلك المصادر التي رجع إليها المؤلف في رحلته الطويلة مع ما تواضع عليه الدارسون في مصطلح الأدب الإسلامي وحدوده وآفاقه في القديم والحديث.

ولم يكن الأدب الإسلامي قبل عصر النهضة تياراً أدبياً وحسب، لأنه كان يمثل الأدب العربي والإسلامي بكل خصائصه واتجاهاته، فلما كان العصر الحديث، واستجر الصراع بين أنصار القديم والجديد وجود تيارين أدبيين يمثل كل منهما الفئة التي تبنته، ودافعت عنه، وطبقته في نتاجها الأدبي، وكان التيار الوافد من نظريات وفنون مستوردة سهلت مهمة أصحابه، في حين كان على التيار الأدبي المحافظ أن يجهد في البحث عن

نظرية أدبية تحدّد سمات هذا الأدب الإسلامي واتجاهاته وبحكم ميل الناس إلى كل جديد له ألقه، وتحت تأثير جهود الخيوط التي شجعت انفلات الأدب من عقاله على مختلف الصور اللغوية والفنية والقيمية، استطاع تيار التجديد أن يحتل الساحة الأدبية قبل أن يتاح للأدب الذي يقوم على الأصالة أن يستجمع أنفاسه ويدافع عن نفسه، ويحدد مساراً في مواجهة رياح التغيير.

يقول المؤلف في المقدمة: (كنا نعجب ونحن على مقاعد الدراسة ببلاء شعراء النبي ﷺ عن الإسلام، وكنا نكبر موقف القرآن الكريم وموقف رسول الله ﷺ في تصويب مسيرة الأدب، وإعظام دور الشعر، وأثر الكلمة، وبيان التصور الفكري الصحيح للأدب كما ينشده الإسلام.

ولكننا بدأنا - بشكل خاص - نحسّ بأهمية الأدب الإسلامي، وضرورة الدعوة إليه في أثناء الدراسة الجامعية، فقد تبين لنا أن ندّرُس وندَرِّس الأدب في مدارسنا وجامعاتنا بحسب المناهج الغربية.. ونتعامل مع المذاهب الأدبية والنقدية الغربية المتناقضة التي يسفه بعضها بعضًا، وكأنها علم مسلّم به.. ولما مضينا في دراسة أدبنا العربي الحديث وجدنا كيف يوغل هذا الأدب يوماً بعد يوم في الخروج عن جادة القيم العربية الإسلامية.. رأينا الأدب العربي يتغرب.. ويتحول إلى أداة من أدوات هدم للأخلاق والقيم والعادات ويدعو إلى الثورة والتمرد على كثير من المثل الدينية، ويروج لعشرات الآراء السقيمة المنحرفة التي تمثل اعتداء صريحاً على كل ماهو أصيل في ثقافة هذه الأمة. ثم يشير المؤلف إلى جيل من الأدباء والدارسين نذروا أنفسهم للدفاع عن الأدب الإسلامي.. وجيل تالٍ جاء بعده من أساتذة الجامعات العربية الإسلامية.. فأسهموا في إعادة الأدب العربي الإسلامي إلى صورته المشرقة، ودافعوا عن قيمه.

د . وليد قصاب

■ لقد أعجبت بما قدمه الدكتور «قصاب» في كتابه «الحداثة في الشعر العربي المعاصر» من تتبع دقيق وتفنيد مقنع لما وراء ثوب الحداثة الأدبية المستورد.

ثم شرح المؤلف هدفه من تأليف الكتاب فيقول: (هو جهد متواضع مقتبس من جهود رادة الأدب الإسلامي وكتابه وناقديه.. حاولت أن أوضح فيه مفهوم الأدب الإسلامي الذي نراه سفينة إنقاذ لثقافتنا المعاصرة ورحابة تجربته الفنية).

موقف الإسلام من الشعر والشعراء

في الفصل الأول من الكتاب يورد المؤلف شواهد من القرآن الكريم حول موقف الإسلام من الشعر والشعراء، فيذكر أن كلمة شاعر وردت في كتاب الله

أربع مرات، وكلمة شعراء مرة واحدة، وفرقت الآيات الكريمة بشكل حاسم بين القرآن والشعر بعد أن ادعى بعض المشركين أنه ضرب من الشعر، كما فرقت بين النبي ﷺ والشاعر، ذلك أن الأول مبعوث لا ينطق بشيء من عنده، وأنه أمين لا يكذب، أما الشاعر فإنه يهيم في دروب الخيال، ويقول ما لا يفعل، وأن منهج النبي ﷺ ومنهج الشعراء مختلفان.

ولا تحمل آيات القرآن الكريم أي حكم قيمي على الشعر يُشعر بنفيه أو تحريمه أو استبعاده، وإنما يفرق بين الشعراء المفسدين والصالحين. فالفريق الأول يتبعهم المفسدون ويقولون ما لا يفعلون، ولا يعني ذلك أن الآيات التي وردت فيهم ترفض الشعر برمته، بل ترسم صورته المشرقة عبر الالتفات إلى الشعراء الصالحين الذين ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴿٢٢٧﴾ [الشعراء]، فالإسلام لم يحارب الشعر والفن لذاته، وإنما ينكر المنهج الذي سار عليه الشعر في الجاهلية من حيث تأريثه للعصبيات والثأر وتحريضه على الفجور أو الفساد.

والقرآن الكريم ببيانه المعجز، وفصاحته الفائقة دليل على أهمية الكلمة وأثرها الطيب، وقد علم الله عز وجل آدم الأسماء كلها، وفضله على الملائكة، وجعل القول مقدمة للعمل، وفي ذلك كله ما يؤكد اعتراف الإسلام بأهمية البيان واعترافه بدوره في المجتمع.

ويخلص المؤلف من موقف الإسلام من الأدب إلى تحديد مفهوم للأدب الإسلامي فيرى أنه «تعبير جمالي شعوري باللغة عن تصور إسلامي للكون والحياة». وبمعنى آخر هو تعبير فني عن رؤية فكرية يحكمها التصور الإسلامي، والمنهج الإسلامي، وتمليها عقيدة الإسلام. ويجمع النقاد والأدباء الإسلاميون على هذا التعريف.

الجانب الجمالي في الأدب الإسلامي

ويتناول المؤلف الجانب الجمالي الفني من الأدب الإسلامي الذي يتميز به كل أدب. فالتجربة الأدبية الفنية لها قيمة منفصلة عن مضامين الأدب النفعية الناجمة عنها، ويكاد المنظرون يجمعون على أن الأدب لا يقوم بمضمونه فحسب، وإنما بأسلوبه وشكله أيضاً، فكلاهما يحكمان العملية الإبداعية، إذ ما من أدب يقوم على جانب منهما، والأدب الإسلامي يجمع بين الفن والفكر، واللغة والمعنى، والشكل والمضمون الذي يجب أن يكون إسلامياً ليندرج في باب الأدب الإسلامي حتى لو لم يكن مبدعه منتسباً إلى الإسلام. فقد أعجب الرسول ﷺ بقول لبيد الشاعر الجاهلي: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل». مثلما أعجب بقول الشاعر طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

واستمع إلى بعض شعر الشاعر «أمية بن أبي الصلت» وقال: «كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» وفي رواية «ليسلم في شعره».

وقد يصدر القول عن شاعر مسلم ملتزم أو غير ملتزم أو غير مسلم فهل يعد ما صدر عن هؤلاء أدباً إسلامياً؟؟

يرى المؤلف أن الأدب الإسلامي لا يصدر إلا عن أديب مسلم، وكلما تعمقت العقيدة في قلبه.. كان التعبير عنها أنضج وأعمق.. وأن الأدب الإسلامي الحقيقي لا يصدر عن أديب غير مسلم، قد يصدر عنه من وحي الفطرة السليمة ما يوافق روح الإسلام، لكن أدبه لا يسمى أدباً إسلامياً، ويسوق المؤلف الحجج التي دفعته إلى تبني هذا الرأي خلافاً لمن ذهب إلى أن أدب غير المسلم يعد أدباً إسلامياً إذا وافق العقيدة الإسلامية أو أيدها: (فنحن ننظر إلى ماقيل لا إلى من قال). ومنها أن ما يقوله غير

■ يرى المؤلف أن الأدب الإسلامي لا يصدر إلا عن أديب مسلم، وكلما تعمقت العقيدة في قلبه.. كان التعبير عنها أنضج وأعمق..

المسلم موافقاً للإسلام لا يمكن أن يصدر عن تصور إسلامي أو ينبع من عقيدة عميقة، وإنما هو الانفعال المؤقت والإعجاب العارض فالتجربة الأدبية تقوم على أربعة شروط هي:

١ - المصدر.
٢ - الوعي.
٣ - القصد.
٤ - الغاية.

ولابد أن تتوافر في أي نتاج يندرج تحت عنوان: الأدب الإسلامي، وأن الرسول ﷺ أعجب ببعض شعر شعراء الجاهلية غير المنتمين للإسلام، فجعلهم في مرتبة مقاربة للمؤمنين.

ويفضل الدكتور وليد قصاب أن يسمي هذا اللون من الأدب «أدب الحكمة» أو «الأدب الموافق للأدب الإسلامي».

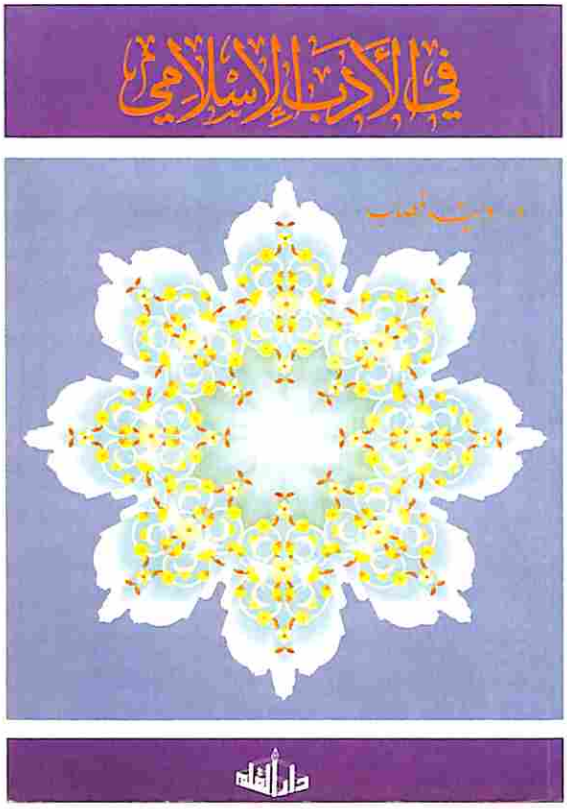

مسوغات الدعوة إلى أدب إسلامي

وفي الفصل الثالث من الكتاب يوضح المؤلف دواعي تبني أدب إسلامي على غرابة هذه الدعوة، فالأصل أن يكون أدب الإسلاميين أدباً إسلامياً، لا أن يكون منحرفاً عن طريق الإسلام والعروبة، غير أن مسيرة أدبنا العربي في طريق التبعية والتغريب تحت تأثير المثاقفة أو التأثر والمحاكاة، جعله يبتعد عن أصالته، ويكون صدى لغيره، ويفقد تفرده وخصوصيته، ويقلد غيره بحجة أنه سئم من محاكاة التراث، ويرضى بالانحدار والهجنة عن طريق الهدم والتخريب في اللغة. فالأدب الإسلامي والدعوة له مسوغة الآن للخروج من حالة انعدام التوازن التي يعيش فيها أدبنا العربي، وتحريره من عبودية تقليد الآخر، وردّه إلى دوره الإيجابي الفاعل في حياتنا، وتصحيح المفاهيم المغلوطة في الأدب والنقد بعد شيوع النظريات النقدية المستوردة والفاسدة، وتحقيق عالمية لأدبنا تقوم على خصائصه المحلية، فالأدب لا يكتب له حضور عالمي إلا من خصوصية محليته، وخصوصية القضايا التي يطرحها وارتباطها بالواقع الذاتي، وتوحيد المسلمين وتمتين الرابطة الدينية بينهم من خلال توحيد اتجاهات الأدب ورؤاه، فالتقليد لا يصنع الأدب ولا يدفع به إلى آفاق عالمية.

مصطلح الأدب الإسلامي بين الماضي والحاضر

وفي الفصل الرابع يناقش المؤلف مصطلح الأدب الإسلامي على حداثته كما يزعم البعض، فيثبت أن هذا المصطلح قديم، وردت دلالته المعنوية في القرآن الكريم، وهو يعني أدب العقيدة والدين، أدب الكلمة الموجهة الطيبة، فقد ساير الأدب الإسلامي نشأة الدعوة الإسلامية وأدرك الرسول ﷺ أثر الأدب في خدمة دعوته، ودعا الشعراء إلى تأييد الإسلام والدفاع عنه، وجعل للشاعر حسان بن ثابت منبراً في المسجد ينشد شعره، كما هاجم القرآن الكريم شعراء الضلال والسفه، فللأدب الإسلامي جذور في التراث، وهو حاجة ماسة لرسم شخصيتنا الأدبية والتعبير عن هويتنا بين الأمم.

تجربة الأدب الإسلامي خلال تاريخ الإسلام

وفي الفصل الخامس، يستعرض المؤلف تجربة الأدب الإسلامي خلال تاريخ الإسلام، فيشير إلى غنى هذه التجربة وتجددها عبر الزمن، فقد اغترفت من ينبوع الإسلام، ولابد أن تتجه هذه التجربة اليوم إلى معايير تضبطها قيم الإسلام. أوتعبر عن جوانب من الحياة لاتتعارض مع هذه القيم النبيلة، على أن تكون أشد احتفاء بالدفاع عن الإسلام وقيمه ونشره بين الناس، وإظهار فضائله. أما تعبيرها عن جوانب الحياة التي لا تتعارض مع مبادئ الإسلام فهو أمر مباح، على ألا يطغى هذا الجانب على الجانب المتصل بالدفاع عن العقيدة وترسيخها، فإن طغيانه يشبه من شغلته دنياه عن آخرته.

ويمتاز الأدب الإسلامي بالرحابة لأن خطابه لا يفرق بين طبقة وطبقة أو طائفة دون أخرى، كما تشترط بعض المذاهب أو المدارس الأدبية، فهو أدب إنساني موجه إلى البشر عامة، إذ لا وجود لطبقية أو طائفية في الإسلام قال رسول الله ﷺ : «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

ويمتاز الأدب الإسلامي أيضًا باتساع آفاق التصور فيه، فقصص القرآن الكريم تحفل بشتى النماذج والطباع الإنسانية، والأحداث الحياتية، فالحياة بتجاربها ميدان واسع لهذا الأدب، بما في ذلك قضايا الإنسان النفسية وتأملاته الفلسفية والفكرية. إلا أن تناول هذه القضايا في الأدب الإسلامي يجب أن يهدف إلى تعزيز الخير ودفع الشر وتعرية الأفكار المنحرفة أو المريضة. فالأدب الإسلامي لا يقبل في دائرته إلا الأدب الذي توافرت فيه شروط سامية من الفنية والأسلوبية أسوة ببيان القرآن الكريم، فهو يستبعد كل أدب لا تتوافر فيه متطلبات الشكل ولو سلم المضمون، لأنه بذلك يخرج عن دائرة الأدب إلى دائرة الفكر. فالأدب الإسلامي، والأديب المسلم يجب أن يعكسا موهبة فنية وثقافة إسلامية غنية ورحبة، وخبرة حياتية عميقة في شؤون الناس والمجتمع.

خصائص الأدب الإسلامي وقضاياه

وفي الفصل السادس يستعرض المؤلف بعض خصائص الأدب الإسلامي وقضاياه، فعلى صعيد العقيدة يصدر هذا الأدب عن عقيدة إسلامية سليمة وشاملة تجاه كل شؤون الحياة، ويرجع الكلمة إلى رحاب الدين، ويتجاوز الأيديولوجيات الدنيوية في مضمونه مثلما يتجاوز المدارس الأدبية الغربية في أسلوبه وشكله ومواقفه إلى ربط الأدب بمنهله الصافي وهو الدين الإسلامي، وقد ذهب بعضهم إلى أن الأدب الذي يدافع عن القيم الخيرة يهبط مستواه، فالشعر والدين لا يلتقيان. قال الأصمعي: (الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره). والواقع أن العقيدة في الشعر قيد، لكنها تضبطه، ومن هنا كانت صعوبة الشعر الملتزم حاجته إلى موهبة فنية متميزة، كذلك فإن الشعر الذي يتناول أغراضاً حياتية كالمديح والهجاء يظل ألصق بالروح الفردية من الشعر الذي يتناول مسائل اجتماعية أو دينية عامة. وقد يبدو بعض الشعر الديني ضعيفاً شأنه شأن أي شعر، بسبب القيود التي تفرضها القيم الحاملة، فقد سئل الشاعر حسان بن ثابت عن سبب ضعف بعض شعره في الإسلام فقال: (إن الإسلام يحجز عن الكذب، أو يمنع الكذب وأن الشعر يزينه الكذب). وبالمقابل فإن أعمالاً دينية عرفت بارتقاء قيمتها الأدبية كشعر الشاعر الإنجليزي، ت. س. إليوت، ومما يساعد على منح الشعر والأدب الإسلامي قيمة أنه يناصرالحق والخير، وأن الدين تعبير عن ضمير جمعي للناس، فهو ملتصق بقلوبهم، واستحكمت الوشائج بين الأدب والدين في الإسلام منذ نشأته، ونحن نلمسها في الحديث النبوي الشريف. مثلما نلمسها في أثر بلاغة القرآن الكريم في الأدب والأدباء، وما قدمه للأدب واللغة من خدمة حين عكف الباحثون على دراسة لغته وبيانه وابتدعوا علوماً لغوية يسرت انتشار العربية وفهم قواعدها وأساليبها البيانية.

الفن للفن أم الفن للحياة؟

وفي مسألة وظيفة الأدب، يقف المؤلف موقفاً توفيقياً من نظرية الفن للفن، والفن للحياة، وقد حقق أدبنا هذه المعادلة منذ القدم، فكان للأدب العربي اتجاهاته الدينية والخلقية، وكان الشعر تمجيداً للقيم الأصيلة من كرم وعفة وسماحة وصفح وشهامة ونجدة، إلا أن الشعر هبط من سمائه حين انصرف الشعراء إلى التكسب، واتخذوا الشعر وسيلة للتزلف وتحقيق المكاسب، وقد فطن القائمون على أمور الأمة والدين إلى أهمية الأدب في التوجيه، وأهمية الشعر الجاهلي في تفسير وشرح القرآن الكريم.

وعلى صعيد النقد رأى بعض النقاد القدامى أن للأدب وظيفة توجيهية ونفعية سامية في حين رفض بعضهم ربط الأدب بأي هدف نفعي، فقد طعن ببعض شعر أبي تمام بسبب ما وجد فيه من ضعف العقيدة. فقال الصولي مدافعاً عنه: (ما ظننت أن كفراً ينقص من شعر ولا إيماناً يزيده). ويمثل هذا التعارض في العصر الحديث أنصار القديم والجديد، فقد دافع عباس محمود العقاد عن نظرية الفن للفن وتحمس لها، بل غالى بعضهم متأثراً بأصحاب هذه المدرسة فأنكر أي صلة بين الفن والحياة.

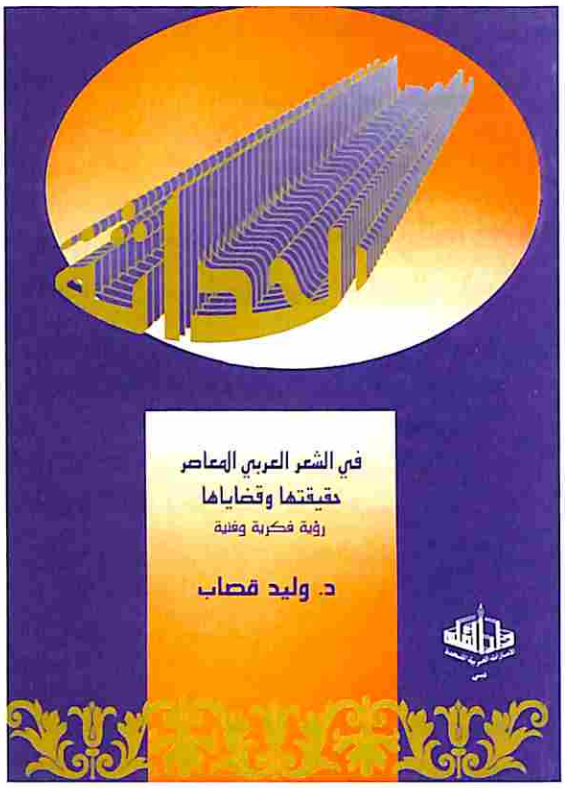

الأدب الإسلامي بين الالتزام والإلزام

وعن صلة الأدب الإسلامي بالالتزام يرى المؤلف أن الإلزام مرفوض في الأدب على صعيد الشكل أو المضمون، فالالتزام ليس إلزاماً يقع الأديب تحت عبء قيوده. إنه تبنٍ واع وحر للدفاع عن تطلعات ذاتية يؤمن بها الأديب، ولم ينجح الإلزام حين تمّ فرضه فنياً على أبي نواس إذ طلب إليه أن يلتزم بعمود الشعر العربي فقال:

دعاني إلى وصف الطلول مسلط
يضيق ذراعي أن أجوز له أمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة
وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا

مثلما لم ينجح في ظل الحكم الشيوعي إذ صدر عنه أدب تافه ومسطح، فالأدب الإسلامي لا يفرض على الأديب موضوعاً معيناً أو جمهوراً معيناً، وإنما يضبط الأدب بضابط واحد هو مناصرة الحق بمعناه المعتقدي، والتعبير كما يراه الإسلام، ولا يقيد الأديب بمدرسة أو أسلوب، على أنه لا يفرض على الأديب أن يغلق نافذته ولا يتطلع إلى ما في عصره من أفكار وحوارات بل عليه أن ينظر ما حوله ويحدد موقفه بجلاء، والالتزام مسؤولية فرضها الله على الإنسان حين أوكل إليه مسؤولية استخلافه على الأرض ومنحه البيان.